الهجرة النبوية

كل يوم يرحل الناس من مكان إلى مكان وينتقلون من بلد إلى بلد ، وقد يكون الراحل ملكا عظيما تتوج باسمه الأحكام وتشرع القوانين وتأتمر بأمره الكتائب وترفع البنود وتخفق الاعلام ، وقد يكون أميرا واسع السلطان تعنو له الرقاب ، وقد يكون ذا جاه عريض يخشى الناس بأسه ويتزلفون اليه ويسرفون فى حفاوتهم به ، وقد تكون الراحلة جملا يضرب فى البيداء ويقطع أغوار الصحراء ونجادها ، وقد تكون سفينة تمخر فى عباب الماء وتهزأ بالعواصف والأنواء وقد تكون قطارا ينساب فى الوديان ويمر بالقرى والدساكر مرورا لطيف وقد تكون طائرة تدوى فى طبقات الهواء وتطن فى آذان سكان السماء

وقد يجمع الراحل خلق كثير يضيق بهم رحب الفضاء فيودعونه أكرم توديع ويحيونه أطيب تحيه ، ويتمنون له سفرا سعيدا ومقاما محمودا وعودا مشهودا وقد تكون الرحلة طويلة المدى تجمع بين المشارق والمغارب وتصل ما بين الشمال والجنوب .

قد يكون ذلك كله ولكن أحدا من الناس لم يفكر فى أن يتخذ من هذه الرحلات معالم لتاريخ البشرية تنسب اليها أحداثه وتضاف أعوامه .

ولكن ما بال محمد وقد هاجر من قرية الى أخرى لاتبعد عنها كثيرا يعتبر المسلمون فى جميع أقطار العالم هجرته أعظم حدث فى التاريخ به يؤرخون أيامهم ويعرفون أعوامهم .

ما بال محمد وقد نبا به الموطن ولحقت به صنوف الأذى وهو فى أهله فيخرج من بلدة تحت أستار الدجى وجنح الظلام لا يحتفى به أحد ولا يشيعه انسان ولا يصحبه الا صديق استخلصه لنفسه من الناس جميعا ومع ذلك يتخذ المسلمون هجرته نقطة تحول فى تاريخ الإنسانية تضاف اليها حوادث التاريخ من قبلها ومن بعدها

ما بال محمد وقد خرج من مكة حين ائتمر به قومه وعزموا على قتله يعد خروجه نصراً للانسانية برمتها وفارقا بين عهدين عهد الظلم والجهالة ، وعهد النور والمبادىء السامية . فقد روى ابن هشام أن قريشا حين رأت أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا منعه وحذروا خروج الرسول اليهم فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار قصى بن كلاب — ليتشاوروا فى الأمر ويقلبوه على وجوهه .

فقال قائل منهم احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب الشعراء أمثاله . وقال آخر . لا بل نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فاذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع .

فقام أبو جهل بن هشام وقال والله أن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليلدا نسيبا وسيطا فينا ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربه رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ويتفرق دمه فى القبائل جميعا فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا للا خذ بالثأر والمطالبة بالدم .

ونال الرأى اعجاب الشيطان فى صورة ذلك الشيخ النجدى الذى وقف بباب دار الندوة واستراح له الحاضرون جميعا وعقدوا النية على تنفيذه وهموا به .

وفى هذا يقول الله تعالى جل ثناؤه « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

هذا هو السبب المباشر للهجرة النبوية على حسب مايظهر للناس ولكن السبب الحقيق أنه ﷺ هاجر امتثالا لأمر الله وطاعة لتلك الرسالة التى نزل بها جبريل عليه السلام من عند الله ولو أن الله تعالى أراد له البقاء بين قومه والنصر عليهم وهو بين أظهرهم ما استطاع أحد أن يعارض إرادة الله .

وبعد فإن هجرة محمد ﷺ كانت نصرا مؤزوراً لدين الله ، وللمبادئ الإنسانية السامية التى اشتملت عليها الشرائع الإلهية، انها فرقت بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، انها حطمت الأوثان ، وجمعت القلوب على عبادة الرحمن ، إنها ألفت بين القبائل المتنافرة وفتحت للناس جميعا طريق الخير ، وأرتهم سبيل السعادة ، انها علمت الانسان معانى العدل والرحمة ، وألهمته حب الكرامة والعيش فى ظلال ذلك القانون السماوى الذى هبط بصلة بين السماء والأرض ، إنها نصبت للناس فى جميع بقاع العالم أغراضا سامية ورسمت لهم مثلا عالية لو أنهم أخذوا نفوسهم بها لتمت السعادة لبنى الانسان جميعا ، لهذا كانت الهجرة مبدأ لاتجاه جديد فى تاريخ الانسان يقصد منه اسعاد النوع برمته .

ولهذا يحتفل بها المسلمون فى جميع بقاع العالم ولعلنا حين نحتفل بتلك الذكرى تتجلى أمامنا تلك الصفات الشريفة والأخلاق الكريمة التى تتمثل فى هجرته ﷺ فنجمل أنفسنا بها ونقتدى بصاحب الهجرة المباركة فى أعمالنا وأقوالنا .

محمد على مصطفى
مساعد كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف